وبلا فم وبلا اذنين ؟ ومن تحت سمعته يقول : « هل استغرقتما في الحديث ؟ كدت أتعب ... ماذا قال ؟ » وأخذ يضحك ، وبدأت كتفاه تهتزان . ولست أدري كيف قلت له هامسا ، دون ان اعي : « انه فطر ، مجرد ثمرة فطر . فطر . » ثم ادركت انه لا يسمع ، فصحت بصوت عال : « انه فطر . فطر » . وسمعته يسأل : « هل قلت شيئا ؟ وصحت بكل قدرتي : « فطر » وراق لي صوتي يرتد الي في البرية وكأنه صراخ آلاف من الناس المختبئين تحت الحجارة ووراء الأشجار : « فطر . مجرد ثمرة فطر ! الا تسمع بعد ؟ فطر » واشتبكت الاصوات حتى ملأتني ، قادمة من كل مكان تحت سقف العتمة الواطىء ، وبدأ هو يغوص الى تحت ، وشعرت بانني اهوي الى القاع ببطء ، ولكن بصورة نهائية . وكنت ما زلت اقول « فطر .. فطر .! » حين انزلني عن كتفيه . « ماذا تقول ؟ » واخذت أصرخ نافضا ذراعي حولي : « انه فطر ، راس عبد العاطي مجرد ثمرة فطر طلعت هناك بالصدفة » وشعرت به يقترب مني ، وأدركت انه لم يسمع ، ابعدته من امامي وتقدمت الى جذع الشجرة . كنت متيقنا ان الشجرة التي تنبت فطرا على غصنها تنبته ايضا في كعب جذعها . بحثت بيدي في اسفل الجذع ، ومن بين الحشائش النامية حوله عثرت على واحدة تشبه التفاحة الصغيرة . انتزعتها ، ودفعتها اليه ، مشيرا بيدي الى فوق حيث كان الرأس ما زال معلقا . وخيم الصمت الثقيل مرة أخرى ، وكما توقعت ، جاءت ضحكته التي لا تنسى : « هذا هو اذن ! » وضحك مرة اخرى ، واخذ يضرب على كتفي بكفه القوية . « يسمونه ايضا فقعا » وسكت . « سأظل كل عمري اضحك على نفسي كلما اتذكر انني جئت اطلب من حية فقع ان تعطيني اذنين اسمع بهما ! » وتابع « وانت أيضا ! » ثم لا شك انه تطلع الى فوق : « اهكذا تضحك علينا يا عبد العاطي ؟ » ومشى الى الامام قليلا ، ثم عاد وكأنه تذكر شيئا ، ناولني العكاز ، وأمسك بيدي . « هيا بنا نعود » . وبعد ثلاث خطوات فقط وقف مرة اخرى وقال : « اسمي ابو قيس ، ما اسمك ؟ » قلت له « عامر » ولكنه لم يسمع ، ولو سمع لما كان لذلك اية أهمية ، ولما كان جديرا بأن يعني شيئا ، وقال : « سأسميك عبد العاطي ، مباركة لهذه الذكرى » وضحك ، ولم يسمعني اضحك ، فيما اخذنا نخطو معا في قلب العتمة والصمت .

— ٤ —

كان اول ما قاله حمدان حين جاء بفرش الخبز الاول ، في الصباح :

— « كنت اعرف جيدا انك ستذهب لضريح الولي ، وقد أنتظرت في الخارج حتى رأيتك تمضي » .

وسألته : — « لماذا لم تتعقبني الى هناك ؟ » .

— « لانني اردتك ان تصفو وحدك مع الولي . لعل لدي من الخطايا ما يمنع وقوع المعجزة في دائرة قطرها ميل » قلت ، بما يشبه الهمس : « ولم تقع اية معجزة » .

— « ربما لانك لم تكن صافي النية ، ذلك يحتاج الى ايمان عميق وحقيقي ، والى صبر ومثابرة .. اتحسب ان الامر يحدث بهذه السرعة ؟ » .

وعددت خمسة ارغفة لزبون ، وانزلت الثمن في الدرج ، ولم اقل شيئا . ايمكن ان تكون ثمة نية اصفى من نية رجل يريد البصر لعينيه ، ايمكن ان يكون هناك ايمان اكثر عمقا من ايمان رجل يتوق للخروج من العتمة ؟ الصبر والمثابرة ! اية عملة غير رائجة في حبس الليل الابدي ! لست استطيع ان اكسب من الضوء والبصر اكثر من حصتي ، وكل لحظة تمضي وانا في هذا الليل الرهيب خسارة لا تعوض ، ليست ابدا رصيدا للحظة آتية ، ليست صبرا ، ولكن كيف يمكن لحمدان ان يعرف ؟